حديث قِطَّين[(١)]

جاء في امتحان شهادة إتمام الدِّراسة الابتدائيَّة لهذا العام «١٩٣٤» في موضوع الإنشاء ما يأتي :

« تقابل قِطَّان : أحدهما سمينٌ تبدو عليه آثارُ النِّعمة ، والآخرُ نحيفٌ يدلُّ منظرُه على سُوء حاله ، فماذا يقولان ؛ إذا حدَّث كلٌّ منهما صاحبَه عن معيشته ؟» .

وقد حار التَّلاميذ الصِّغارُ فيما يَضعون على لسان القِطَّين ، ولم يعرفوا كيف يوجِّهون الكلامَ بينهما ، وإلى أيِّ غايةٍ ينصرف القول في مُحاورتهما ، وضاقوا جميعاً وهم أطفال ـ أن تكون في رؤوسهم عقول السَّنانير[(٢)] ؛ وأعياهم أن تنزل غرائزهم الطَّيبة في هذه المنزلة من البهيميَّة ، ومن عيشها خاصَّةً ، فيكتنهوا تدبير هذه القِطاطِ لحياتها ، وينفذوا إلى طبائعها ، ويندمجوا في جُلودها ، ويأكلوا بأنيَابها ، ويمزِّقوا بمخالبها .

قال بعضُهم : وسَخِطنا على أساتذتنا أشدَّ السَّخط ، وعبناهم بأقبح العيب . كيف لم يعلِّمونا من قبل ، أن نكون حَميراً ، وخيلاً ، وبغالاً ، وثيراناً ، وقردةً ، وخنازير ، وفئراناً ، وقِطَطَةً ، وما هبَّ ، ودبَّ ، وما طار ودَرَج[(٣)] ، وما مَشى وانْساح[(٤)] ؛ وكيف ـ ويحهم !ـ لم يلقِّنونا مع العربيَّة ، والإنجليزيَّة لغاتِ النَّهيق ، والصَّهيلِ ، والشَّحيج[(٥)] ، والخُوار ، وضحِك القرد ، وقبَاع الخِنزير ، وكيف نصِيءُ ونَموءُ ، ونلغَط لَغَط الطَّير ، ونَفحُّ فحيحَ الأفعى ، ونَكِشُّ كشيشَ الدَّبابات[(٦)] ، إلى ما يتمُّ به هذا العلم اللُّغويُّ الجليل ؛ الذي تقوم به بلاغة البهائم ، والطير ، والحشرات ، والهمَج[(٧)] ، وأشباهِها . . . ؟

---

(١) انظر « عمله في الرسالة » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .
(٢) « السنانير » : جمع السِّنَّور ، وهو الهِرُّ .
(٣) « درج » : مشى مشياً ضعيفاً .
(٤) « انساح » : اتَّسع .
(٥) « الشحيج » : صوت البغل .
(٦) هذه أصوات هذه الأجناس في اللغة . (ع) .
(٧) « الهمج » : ذباب صغير كالبعوض يقع على وجوه الغنم والحمير وأعينها .

وقال تلميذٌ خبيثٌ لأستاذه : أمَّا أنا ؛ فأوجزْت ، وأعجزت . قال أستاذه : أجدتَ ، وأحسنتَ ، ولله أنتَ ! وتالله لقد أصبتَ ! فماذا كتبتَ ؟ قال : كتبتُ هكذا :

يقول السَّمين : ناوْ ، ناوْ ، ناوْ . . فيقولُ النَّحيف : نَوْ ، نَاوْ نَوْ . . فيردُّ عليه السَّمين : نَوْ ، نَاوْ ، نَاوْ . . فيغضب النَّحيف ، ويكْشِرُ عن أسنانه ، ويحرك ذيله ، ويصيح : نَوْ ، نَوْ ، نَوْ . . فيلطمُه السَّمين ، فيَخْدِشُه ، ويصرخ : ناوْ . . فيثبُ عليه النَّحيف ، ويصطرِعان ، وتختلط « النَّوْنَوَة » لا يمتاز صوتٌ من صوتٍ ، ولا يَبين معنًى من معنًى ، ولا يمكن الفهمُ عنهما في هذه الحالة إلا بتعبٍ شديدٍ ، بعد مراجعة قاموس القطاط . . !

قال الأستاذ : يا بني ! بارك الله عليك ! لقد أبدعت الفنَّ إبداعاً ، فصنعت ما يصنع أكبرُ النَّوابغ . يُظهر فنَّه بإظهار الطَّبيعة ، وإخفاءِ نفسه ، وما ينطق القطُّ بلغتنا إلا معجزةً لنبيٍّ ، ولا نبيَّ بعد محمَّد ﷺ ؛ فلا سبيلَ إلا ما حكيت ، ووصفت ؛ وهو مذهبُ الواقع ؛ والواقعُ هو الجديد في الأدب ؛ ولقد أرادوك تلميذاً هِرّاً ، فكنت في إجابتك هِرّاً أستاذاً ؛ ووافقت السَّنانير ، وخالفت النَّاس ؛ وحقَّقت للممتحِنين أرقى نظريات الفنِّ العالي ، فإنَّ هذا الفنَّ إنَّما هو في طريقة الموضوع الفنِّيَّة ؛ لا في تلفيق الموادِّ لهذا الموضوع من هنا ، وهناك ؛ ولو حفظوا حرمة الأدب ، ورَعَوا عهد الفنِّ ؛ لأدركوا : أنَّ في أسطرك القليلة كلاماً طويلاً بارعاً في النَّادرة ، والتهكُّم ، وغرابةِ العبقريَّة ، وجمالها ، وصدقِها ، وحسن تناولها ، وإحكام تأديتها لما نؤدِّي[١] ؛ ولكن ما الفرق يا بني ! بين « ناوْ » بالمدِّ ؛ و« نَوْ » بغير مدٍّ . . ؟ قال التِّلميذ : هذا عند السَّنانير كالإشارات التلغرافيَّة . شرْطةٌ ، ونقطةٌ ، وهكذا .

قال : يا بني ! ولكنَّ وَزَارة المعارف لا تُقِرُّ هذا ، ولا تعرفه ؛ وإنَّما يكون المصحِّح أستاذاً لا هِرّاً . والامتحان كتابي ، لا شَفَوي .

قال الخبيث : وأنا لم أكن هِرّاً ، بل كنت إنساناً ؛ ولكنَّ الموضوع حديث قِطَّين ، والحكم في مثل هذا لأهله القائمين ، لا المتكلِّفين له المتطفِّلين عليه ؛

---

(١) هذا كلام تهكم كما هو ظاهر . (ع) .

فإن هم خالفوني ؛ قلتُ لهم : اسألوا القِطاط : أولاً فليأتوا بالقِطَّين : السَّمين ، والنَّحيف ؛ فليجمعوا بينهما ، وليُحَرِّشوهما ؛ ثمَّ ليُحْضروا الرُّقباء هذا الامتحان ، وليكتبوا عنهما ما يسمعونه ؛ وليَصِفوا منهما ما يرونه ، فوالذي خَلَق السَّنانير ، والتلاميذ ، والممتحِنين ، والمصحِّحين جميعاً ! ما يزيد الهرَّان على « نَوْ ، وناوْ » ، ولا يكون القول بينهما إلا مِنْ هذا ، ولا يقع إلا ما وصفتُ ، وما بُدٌّ من المهارَشَة ، والموائبة بما في طبيعة القويِّ ، والضَّعيف ، ثمَّ فرار الضَّعيف مهزوماً ، وينتهي الامتحان .

* * *

إنَّ مثلَ هذا الموضوع يشبه تكليف الطَّالبِ الصَّغير خَلْقَ هِرَّتين لا الحديثَ عنهما ، فإنَّ إجادة الإنشاء في مثل هذا الباب ألوهيَّةٌ عقليَّةٌ تَخلق خلقَها السَّويَّ الجميل نابضاً حيّاً ، كأنَّما وضعتْ في الكلام قلبَ هرٍّ ، أو جاءتْ بالهرِّ له قلبٌ من الكلام . وأين هذا من الأطفال في الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، وما حولهما ، وكيف لهم في هذه السِّنِّ أن يمتزجوا بدقائق الوجود ، ويُداخِلوا أسرارَ الخليقة ، ويُصبحوا مع كلِّ شيءٍ رَهْناً بعِللِه ، وعند كلِّ حقيقةٍ موقوفين على أسبابها ؟ وقد قيل لهم من قبل في السَّنوات الخالية : « كن زهرةً ، وصِفْ . واجعل نفسَك حبَّة قمحٍ ، وقلْ » . وإنَّما هذا ونحوُه غايةٌ من أبعد غايات النُّبوَّة ، أو الحكمة ؛ إذ النَّبيُّ تعبيرٌ إلهي تتَّخذه الحقيقةُ الكاملةُ ؛ لتنطِقَ به كلمتَها ؛ الَّتي تسمَّى الشَّريعة ، والحكيمُ وجهٌ آخر من التَّعبير ، تتَّخذه تلك الحقيقةُ لتُلقَى منه الكلمة ؛ الَّتي تُسمَّى : الفنَّ .

وقد كان في القديم امتحانٌ مثل هذا ، لم ينجح فيه إلا واحدٌ فقط من آلافٍ كثيرةٍ ؛ وكان الممتحِن هو الله جلَّ جلالُه ؛ والموضوعُ حديثُ النَّملة مع النَّمل ، والنَّاجحُ سليمان عليه السلام !

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ .

إنَّ الكونَ كلَّه مستقرٌّ بمعانيه الرَّمزية في النَّفس الكاملة ؛ إذ كانت الرُّوح في ذاتها نوراً ، وكان سرُّ كلِّ شيءٍ هو من النُّور ، والشُّعاعُ يجري في الشُّعاعِ كما يجري الماءُ في الماءِ ، وفي امتزاج الأشعَّة من النَّفس والمادَّة تجاوُبٌ روحانيٌّ هو بذاته

تعبيرٌ في البصيرة وإدراكٌ في الزَّمن ، وهو أساسُ الفنِّ على اختلاف أنواعه . في الكلمة ، والصُّورة ، والمثال ، والنَّغْمة . أي : الكتابةِ ، والشِّعر ، والتَّصوير ، والحفر ، والموسيقا .

ومن ذلك لا يكون البيانُ العالي أتمَّ إشراقاً إلا بتمام النَّفس البليغة في فضيلتها ، أو رذيلتها على السَّواء ؛ فإنَّ من عجائب السُّخرية بهذا الإنسان أن يكون تمامُ الرَّذيلة في أثره على العمل الفنِّي هو الوجهَ الآخرَ لتمام الفضيلة في أثره على هذا العمل ؛ والنُّقطةُ التي ينتهي فيها العلوُّ من مُحيط الدَّائرة هي بعينها التي يبدأ منها الانحدارُ إلى السُّفل ؛ ومن ثمَّ كانت الفنونُ لا تُعتبر بالأخلاق ؛ حتَّى قال علماؤنا : إنَّ الدِّين عن الشِّعر بمَعْزِلٍ ؛ فالأصلُ هناك سموُّ التَّعبير ، وجماله ، وبلاغة الأداء ، ورَوْعتُها ؛ ولا يكون السُّؤالُ الفنِّيُّ : ما هي قيمةُ هذه النَّفس ؟ ولكن : ما طريقتُها الفنِّيَّة ؟ وأيُّ عجيبٍ في ذلك ؟ أليس لجهنم حقٌّ في كبار أهل الفنِّ ، كما للجنَّة حقٌّ في نوابغه ؟ وإذا قالت الجنَّة : هذه فضائلي البليغة ؛ أفلا تقول الجحيمُ : وهذه بلاغةُ رذائلي ؟ فكيف لعمري يستطيع إبليسُ أن يؤدِّي عمله الفنِّيَّ . . ويصوِّرَ بلاغتَه العاليةَ إلا في ساقِطِيْنَ من أهلِ الفكر الجميل ، وساقطاتٍ من أهل الجسم الجميل . . ؟

* * *

لقد بعدنا عن القِطَّين ، وأنا أريد أن أكتبَ من حديثهما وخبَرِهما .

كان القِطُّ الهزيلُ مرابطاً في زقاقٍ ، وقد طارد فأرة ، فانجَحَرَت في شِقٍّ ، فوقف المسكينُ يتربَّص بها أن تخرج ، ويؤامِر نفسَه كيف يعالجها ، فيَبتزُّها ، وما عقلُ الحيوانِ إلا من حرفة عيشِه ، لا من غيرها . وكان القِطُّ السَّمين قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرِّجَ عن نفسه بأن يكونَ ساعةً ، أو بعض ساعةٍ كالقِططة بعضِها مع بعضٍ ، لا كأطفالِ النَّاس مع أهليهم ، وَذَوي عنايتهم ، وأبصر الهزيلَ من بعيدٍ ، فأقبل يمشي نحوه ، ورآه الهزيل ، وجعل يتأمَّله ، وهو يتخلَّع تخلُّعَ الأسد في مشيته ، وقد ملأ جلدتَه من كلِّ أقطارها ، ونواحيها ، وبَسَطتْه النِّعمةُ من أطرافه ، وانقلبت في لحمه غِلَظاً ، وفي عَصَبه شِدَّةً ، وفي شَعره بريقاً ، وهو يَموجُ في بدنه من قوةٍ ، وعافيةٍ ، ويكاد إهابه ينشقُّ سِمنَاً ، وكِدْنةً . فانكسرت نفسُ الهزيل ، ودخَلته الحسرة ، وتَضَعْضَعَ لمرأى هذه النِّعمة مَرِحةً مختالةً ؛ وأقبل

السَّمينُ ؛ حتَّى وقف عليه ، وأدركته الرَّحمة له ؛ إذ رآه نحيفاً متقبِّضاً ، طاويَ البطن[١] ، بارزَ الأضلاع ، كأنَّما همَّت عظامُه أن تترك مسكتها[٢] من جِلده ؛ لتجدَ لها مأوًى آخر .

فقال له : ماذا بك ؟ ومالي أراك مُتَيَبِّساً كالميت في قبره ؛ غير أنك لم تمت ؟! ومالك أُعطيتَ الحياةَ ؛ غير أنَّك لم تحيَ ؟ أَوَلَيْسَ الهرُّ منَّا صورةً مختزَلةً من الأسد ؛ فما لك ـ ويحك !ـ رجعتَ صورةً مختزلةً من الهرِّ ؟ أفلا يسقُونك اللَّبن ، ويُطعمونك الشَّحمة ، واللَّحمة ، ويأتونك السَّمك ، ويُقطِّعون لك من الجبن أبيض ، وأصفر ، ويفتُّون لك الخبزَ في المرق ، ويؤثرك الطِّفلُ ببعض طعامه ، وتدلِّلك الفتاةُ على صدرها ، وتمسَحك المرأة بيديها ، ويتناولك الرَّجل كما يتناول ابنه . . ؟ وما لجِلدك هذا مُغْبَرّاً كأنَّك لا تَلطَعُه بلُعابك ، ولا تتعهَّده بتنظيفٍ ، وكأنَّك لم تر قطُّ فتًى ، أو فتاةً يجري الدِّهان بريقاً في شعره ، أو شعرها ، فتحاول أن تصنعَ بلعابك لشعرك صنيعَها ؛ وأراك متزايِلَ الأعضاء ، متفكِّكاً حتَّى ضَعُفْتَ ، وجَهدتَ ، كأنَّه لا يركبك من حُبِّ النَّوم على قَدْرٍ من كسلك ، وراحتِك ، ولا يركبك من حُبِّ الكسل على قدرٍ من نعيمك ، ورَفاهتك ، وكأنَّ جنبيك لم يعرفا طِنْفِسة[٣] ، ولا حَشِيَّة[٤] ، ولا وسادةً ، ولا بساطاً ، ولا طِرازاً[٥] ، وما أشبهك بأسدٍ أهلكه ألا يجد إلا العُشب الأخضر ، والهشيم[٦] اليابس ، فما له لحمٌ يجيء من لحمٍ ، ولا دمٌ يكون من دمٍ ، وانحطَّ فيه جسمُ الأسد ، وسكنتْ فيه روح الحمار !

قال الهزيل : وإنَّ لك لحمةً ، وشحمةً ، ولبناً ، وسمكاً ، وجبناً ، وفتاتاً ؟ وإنَّك لتقضي يومَك تَلطَعُ جِلدك ماسحاً وغاسلاً ؟! أوَ تتطرَّح على الوسائد والطَّنافس نائماً ، ومتمدِّداً ؟! أما والله لقد جاءتك النِّعمةُ ، والبلادة معاً ، وصلحتْ

---

(١) « طاوي البطن » : يعني أنه جائع .
(٢) « مسكتها » : المُسْكة : ما يُمسك به .
(٣) « طنفسة » : بساط .
(٤) « حشية » : هي الفراش المحشو .
(٥) « طرازاً » : ما يُنْسج من الثياب للسلطان .
(٦) « الهشيم » : النبت اليابس المتكسر .

لك الحياة ، وفسدتْ منك الغريزة ، وأحكمتَ طبعاً ، ونَقضْتَ طِباعاً ، وربِحتَ شِبَعاً ، وخسِرْتَ لذةً ، عطفوا عليك ، وأفقدوك أن تعطف على نفسك ، وحملوك ، وأعجزوك أن تستقلَّ ، وقد صرت معهم كالدَّجاجة : تُسمَّن لتُذبح ، غير أنَّهم يذبحونك دَلالاً ، ومَلالاً .

إنَّك لتأكلُ من خِوانِ أصحابك ، وتنظرُ إليهم يأكلون ، وتطمع في مؤاكلتهم ، فتشبع بالعين ، والبطن ، والرغبة ، ثمَّ لا شيء غير هذا ، وكأنَّك مرتبطٌ بحبالٍ من اللَّحم ، تأكل منها ، وتحتَبس فيها .

إنْ كان أوَّلَ ما في الحياة أن تأكل ؛ فأهون ما في الحياة أن تأكل ؛ وما يقتلك شيءٌ كاستواءِ الحال ، ولا يحييكَ شيءٌ كتفَاوتها ؛ والبطن لا يتجاوز البطن ، ولذَّتُه لذَّتُه وحدها ؛ ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك ، وعن العِلل الباطنةِ الَّتي تحرِّكنا إلى لذَّاتِ أعضائنا ؛ ومتاعِ أرواحِنا ؛ وتهبُنا من كلٍّ ذلك وجودَنا الأكبر ، وتجعلنا نعيشُ من قِبَل الجسم كلِّه ، لا من قبل المعدة وحدها ؟ .

قال السَّمين : تالله لقد أكسبك الفقرُ حكمةً وحياة ! وأراني بإزائك معدوماً بزوال أسلافي منِّي ، وأراك بإزائي موجوداً بوجود أسلافك فيك . ناشدتُك الله إلا ما وصفت لي هذه اللَّذاتِ التي تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشِّبع ، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرِّضا ؟!

فقال الهزيل : إنَّك ضخمٌ ، ولكنَّك أبله ، أما علمت ـ ويحك !ـ بأنَّ المحنة في العيش هي فكرةٌ ، وقوَّةٌ ، وأنَّ الفكرة ، والقوَّة هما لذَّةٌ ، ومنفعةٌ ، وأنَّ لهفة الحرمان هي الَّتي تضع في الكسْب لذَّة الكسب ، وسُعار[1] الجوع هو الَّذي يجعل في الطَّعام من المادَّة طعاماً آخر من الرُّوح ، وأنَّ ما عدل به عنك من الدُّنيا لا تعوِّضك منه الشَّحمة ، واللَّحمة ، فإنَّ رغباتنا لا بدَّ لها أن تجوع ، وتتغذَّى ، كما لا بدَّ من مثل ذلك لبطوننا ، ليوجِد كلٌّ منهما حياته في الحياة ، والأمور المطمئنَّة كهذه الَّتي أنت فيها هي للحياة أمراضٌ مطمئنةٌ ، فإنْ لم تنقص من لذَّتها ؛ فهي لن تزيدَ في لذَّتها ، ولكنَّ مكابدة الحياة زيادةٌ في الحياة نفسها .

وشرُّ السعادة أن تكون فيك القِوَى الدَّاخلية ؛ التي تجعل الأحسن أحسنَ ممَّا

(١) « سعار » : التهاب .

يكون ، وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ ممَّا هو ، وكيف لك بهذه القوَّة وأنت وادعٌ ، قارٌّ[١] ، محصورٌ من الدُّنيا بين الأيدي ، والأرجل ؟ إنَّك كالأسد في القفص ، صَغُرت أجَمَتُه ، ولم تزل تصغُر ؛ حتَّى رجعت قفصاً يحدُّه ، ويحبسه ، فصغُر هو ، ولم يزل يصغُر ؛ حتَّى أصبح حركةً في جلدٍ ؛ أمَّا أنا فأسدٌ على مَخَالبي ، ووراء أنيابي ، وغيضَتي أبداً تتَّسع ، ولا تزال تتَّسع أبداً ، وإنَّ الحرِّيَّة لتجعلني أتشمَّمُ من الهواء لذَّةً مثل لذَّة الطَّعام ، وأسترْوِحُ من التُّراب لذَّةً كلذَّة اللَّحم . وما الشَّقاء إلا خَلَّتان من خلال النَّفس ؛ أمَّا واحدةٌ : فأن يكونَ في شرهِك ما يجعل الكثيرَ قليلاً ، وهذه ليست لمثلي ما دمتُ على حدِّ الكفاف من العيش ؛ وأمَّا الثَّانيةُ : فأنْ يكونَ في طمعك ما يجعلُ القليلَ غيرَ قليلٍ ، وهذه ليس لها مثلي ما دمتُ على ذلك الحدِّ من الكفاف ، والسَّعادةُ ، والشَّقاء ، كالحقِّ ، والباطل ؛ كلُّها من قِبَل الذَّات ، لا من قِبل الأسباب ، والعلل ، فمن جاراها ؛ سَعِد بها ، ومن عَكسها عن مجراها ؛ فبها يشقَى .

ولقد كنتُ السَّاعةَ أَخْتِلُ فأرةً[٢] انجحرتْ[٣] في هذا الشَّقِّ ، فطعِمتُ منها لذَّةً ؛ وإن لم أطعم لحماً ، وبالأمس رماني طفل خبيث بحجرٍ يريد عَقري[٤] ، فأحدثَ لي وجعاً ، ولكن الوجع أحدث لي الاحتراس ، وسأغشَى الآن هذه الدَّار الَّتي بإزائنا ، فأيَّةُ لَذّة في السَّلة ، والخطفةِ ، والاستِرَاقِ ، والانتهاب ، ثمَّ الوثب شدّاً بعد ذلك ؟ هل ذقتَ أنت برُوحك لذَّةَ الفرصة ، والنَّهزة[٥] ، أو وجدتَ في قلبك راحة المخالسة ، واستراقِ الغفلة من فأرةٍ ، أو جُرَذٍ ، أو أدركت يوماً فرحة النَّجاة بعد الرَّوَغان من عابث ، أو باغٍ ، أو ظالمٍ ؟ وهل نالتك لذَّةُ الظَّفر حين هَوَّلك طفلٌ بالضَّرب ، فهوَّلتَهُ أنت بالعضِّ ، والعَقر ، ففرَّ عنك منهزماً لا يلوي ؟ .

قال السَّمين : وفي الدُّنيا هذه اللَّذاتُ كلُّها وأنا لا أدري ؟! هلمَّ أتوحَّش معك ، ليكونَ لي مثل نُكرك ، ودَهائك ، واحتيالِك ، فيكون لي مثلُ راحتك

---

(١) « قار » : مستقر .

(٢) « أختل فأرة » : أتخفى لها ، وأخدعها عن غفلة .

(٣) « انجحرت » : أوتْ إلى جُحْرها .

(٤) « عقري » : العَقْر : الجرح .

(٥) « النهزة » : الفُرْصة .

المكدودة ، ولذَّتِك المتعَبة ، وعُمركَ المحكوم عليه منك وحدك . وسأتصدَّى معك للرِّزق أطارِدُه ، وأواثبُه ، وأغاديه ، وأراوِحُه و . . .

فقطع عليه الهزيل ، وقال :

يا صاحبي ! إنَّ عليك من لحمك ، ونعمتك علامةَ أَسرِك ، فلا يلقانا أوَّل طفل إلا أهوى لك ، فأخذك أسيراً ، وأهوى عَلَيَّ بالضرب لأنطلق حُرّاً ، فأنت على نفسك بلاء ، وأنت بنفسك بلاءٌ عليَّ .

وكانت الفأرةُ التي انجحرتْ قد رأت ما وقع بينهما ، فسرَّها اشتغالُ الشَّرِّ بالشَّرِّ . . وطالت مراقبتُها لهما حتَّى ظنَّت الفرصة ممكنةً ، فوثبت وثبةَ مَنْ ينجو بحياته ، ودخلت في بابٍ مفتوح ، ولمحها الهزيل ، كما تلمح العين برقاً أومض ، وانطفأ ، فقال للسَّمين : اذهب راشداً ، فحسبُك الآن من المعرفة بنفسك وموضعِها من الحياة : أنَّ الوقوف معك ساعةً هو ضَياع رزقٍ ، وكذلك أمثالُك في الدُّنيا ، هم بألفاظهم في الأعلى ، وبمعانيهم في الأسفل . . .

* * *